Annals of letters and languages حوليات الآداب واللغات
ISSN 2335-1969 E.ISSN 506X - 2602
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/312

مجلة علمية دولية محكمة . كلية الآداب واللغات . جامعة محمد بوضياف .المسيلة الجزائر

المجلد 09 عدد : 02/ جوان 2021 صفحة من : 09 / 21

الإشارات النصية عند ابن الزبير الغرناطي– ملاك التأويل نموذجا –

TheTextual references according to Ibn al-Zubayr al-Gharnati

-Malak Etaawill as a model -

المؤلف الأول[1]* خليدة بن عياد

k.benayad@univ-boumerdes.dz. جامعة امحمد بوقرة بومرداس (كلية الآداب واللغات) الجزائر

معلومات المقال

تاريخ الاستلام: 2021 /05/24.
تاريخ القبول: 2021/06/ 02.

الكلمات المفتاحية

الإشارات – النص – التناسب –الاتساق- الانسجام

ملخص (لا يزيد عن عشرة أسطر) Article info

يسعى هذا البحث لإماطة اللثام عن مصنف بارز في التراث العربي النصي لصاحبه "ابن الزبير الغرناطي" الذي ترك بصمة بالغة الأهمية في مجال الدراسة النصية – وبالتحديد تلك الدراسة الفذة والنادرة في كتابه **ملاك التأويل** . والذي يعتبر دراسة مرجعية في موضوع الاتساق النصي حيث تمكن من ربط النصوص بين بعضها البعض بصورة مضوعاتية داخل النص الواحد (السورة) أو بين النصوص المتعددة (عدة سور). ثم يؤكد التناسب التام ، والتلاؤم الكامل بين الآيات والسور.

ومنه نحاول تقصي المنهج الذي اتبعه الغرناطي في تعامله مع النص محاولين الإجابة عن الإشكالية التالية :ماهي الإشارات التي عالجها الغرناطي في تفسيره؟و كيف ظهرت مبادئ الاتساق والانسجام في ملاك التأويل ؟

Key words/
references - Text – Coherence – Cohesion - Vroportionality

***ABSTRACT**: This research seeks to uncover a prominent work in the Arabic textual heritage of its author "Ibn al-Zubayr al-Gharntai," who left a very important imprint in the field of textual study - and specifically this inimitable and rare study in his book MALAK ETAAWILL.Which is considered a reference study on the subject of textual consistency, as it was able to link texts in a single text or between multiple text. .And from it, we try to answer the following problem: What are the references that Gharntai dealt with in his book?And how did the principles of consistency and harmony appear in this book of interpretation?*

[1] المؤلف المرسل :خليدة بن عياد

. **مقدمة:** شهد العصر الحديث ثورة معرفية طالت جميع الحقول الإنسانية والتخصصات العلمية ،فقد بلغ تطور العلوم إلى أن توصلت بشساعتها تفرعات وتخصصات دقيقة ، وها هي ذي علوم اللغة تهتم بأدق تفاصيل علم النص ،إذ تلقي الدراسة العلمية ضلالها على النص بتتبع أصغر بنية فيه إلى أكبر ما يمكن أن يصل إليه التحليل .

والعلوم اللغوية العربية هي علوم نصية ، ما كانت لتنشأ لولا وجود النص القرآني هذا النص الذي فتّق في العقل العربي المسلم مكامن العبقرية والإلهام .ومنه برعت فيهم قراءة النص قراءة جمالية لأغراض استقصائية استنباطية (الحكمة والعبرة) وبنظرة شمولية تستوعب مواطن التماسك والانسجام فيه .

وإنا نحسب كتابا من العصر الأندلسي ككتاب **ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل** مساهمة متقدمة مهمة ،وواحدة من الإسهامات الفريدة التي اضطلعت بالنص القرآني وحاولت ملامسة بعض الجوانب اللطيفة فيه ،وشيئا من الإعجاز اللغوي بين آياته تلك المتشابهات والمختلفات التي تنم عن قوة لغوية نصية لا تنتهي مستجداتها في كل حين وبعد أن جهله الناس مدة من الزمن عاد اليوم في الكثير من الأبحاث العلمية والأطروحات الأكاديمية معترفين بجودة المنهج ودقة النتائج التي توصل إليها العالم اللغوي الفذ أحمد ابن إبراهيم ابن الزبير الثقفي الغرناطي.

2.مدخل تعريفي بالمدونة

1.2.صاحب الكتاب

هو :أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي العاصمي الجياني الغرناطي، أبو جعفر. 627 708هـ1308-1229/ م ولد في مدينة جيان الأندلسية، قال لسان الدين بن الخطيب » :نسبه بها كبير، وحسبه أصيل، وثروته معروفة». وفي جيّان تلقّى علومه الأولى؛ وحفظ القرآن الكريم.[1]

رحل ابن الزبير مع أسرته من جيان عندما هاجمها العدو إلى مدينة مالقة، وفيها أكمل علومه وتلقى عن المشايخ وسمع عنهم الحديث النبوي الشريف، وممن أخذ عنهم سعيد بن محمد الحفار وابن أبي الغصن وإسحاق بن إبراهيم الطوسي وغيرهم.

وبعد أن أتقن عددًا من فروع العلم تصدر لإقراء كتاب الله تعالى وإسماع الحديث وتعليم العربية وتدريس الفقه، ورحل إليه طلاب العلم ؛ لأنه كان من أهل التجويد والإتقان وكان عارفًا بالقراءات.

برع ابن الزبير في علومٍ شتى هي التفسير والحديث ومصطلحه والقراءات والنحو والتاريخ والنقد، وعنه يقول أبو حيان الأندلسي: «كان محدثًا جليلًا ناقدًا نحويًا وأصوليًا فصيحًا مفوهًا حسن الخط مفسرًا مؤرخًا أقرأ القرآن الكريم والحديث بمالقة وغرناطة وغيرهما، وكان كثير الإنصاف ناصحًا في الإقراء، خَرَج من مالقة ومن طلبته أربعة يُقرئون كتاب سيبويه.«

اتصفت شخصيته بصفات خاصة ؛ أشار إليها لسان الدين بن الخطيب، فكان كثير الخشوع والخشية، مسترسل العبارة، صلبًا في الحق، شديدًا على أهل البدع، ملازمًا للسنة، جزلًا مهيبًا معظمًا عند الخاصة والعامة، عذب الفكاهة، طيب المجالسة، حلو العبارة.[2] وقد حصلت

بينه وبين أحد الرؤساء التُّجِيبيين خصومة كانت سببًا في ضياع كتبه؛ إذ دهمه رجال المتغَلّب التجيبي في منزله ولكنه فرّ منهم، فاستولوا على كتبه وضاع جلها.

توفي ابن الزبير في غرناطة. وترك كتبًا منها «ملاك التأويل» وهو كتاب كبير في مجلدين نشره محمود كامل أحمد بدار النهضة العربية في بيروت سنة 1985م. وهذا الكتاب في علم المتشابه في القرآن الكريم، وقد ألَّف فيه علماء سابقون، لكن ابن الزبير نقل عنهم وأتى بأشياء جديدة نبه عليها في كتابه.

ومن كتبه الأخرى «البرهان في ترتيب سور القرآن» وفيه يبحث التناسب بين الآيات، وقد سماه بعض العلماء «البرهان في تناسب سور القرآن»، وله كتب في التاريخ؛ منها: «الإعلام بمن ختم به القطر الأندلسي من الأعلام» وهو ترجمة لعلماء الأندلس، وكتاب «صلة الصلة» وهو ذيل على كتاب ابن بشكوال.

كان ابن الزبير إضافة إلى ذلك كله شاعرًا وله شعر ذكره تلميذه أبو البركات البلفيقي في كتابه: «شعر من لا شعر له» مما رواه عمن ليس الشعر صناعته، ذكر ذلك لسان الدين بن الخطيب في كتابه الإحاطة بأخبار غرناطة.

2.2.موضوع الكتاب والغاية من تأليفه :

حصر ابن الزبير موضوع كتابه في توجيه المتشابه اللفظيّ، فنصَّ على ذلك في عنوانه؛ حيث سمَّاه:"**ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل**"، وأشار إلى ذلك في مقدمة الكتاب؛ فقد رأى ابن الزبير أن توجيه ما تكرر من آيات القرآن وألفاظه، أو اختلف بالتقديم أو بالتأخير، أو بالزيادة في التعبير، وهو ما يسمى بتوجيه المتشابه اللفظي، رأى في توجيهه كشف النقاب عن منظوم القرآن الجليل، وإعجازه الباهر، وعدَّ ذلك العمل خدمة جليلة لعلوم القرآن، لا تقل أهميَّة عن معرفة أسباب نزوله، أو معرفة ناسخه ومنسوخه، أو مكيِّه ومدنيِّه، أو غيرها من علوم القرآن المختلفة" [3] ولم يخرج عما رسمه لنفسه وحدده، بل في أحيان كثيرة . في ثنايا الكتاب وأثناء توجيهه للمتشابه . يشير إلى الطريقة التي بنى عليها كتابه، وإذا خرج عن طريقته نبه إلى ذلك في موضعه، وهذه فائدة مهمة في الكتاب.

3.أسلوب الغرناطي في الكتاب :

ونعني به طريقته التي انتهجها في إيصال باب من أبواب العلم لقرائه ، وإنا حين نقول بأسلوب ابن الزبير الغرناطي نلمِّح منذ البداية إلى أمرٍ مهمٍ مازال محل جدالٍ بين النقاد والباحثين، وهو نفي صفة المنهجية عن الكتاب الأوائل من العرب بدعوى أن مؤلفاتهم كانت حاوية لكل أمرٍ من أمور الحياة والعلم ، فإن سلمنا جدلا بهذا القول فإنا لا ننفي بروزه في بدايات عصر التدوين والتأليف والمراحل

التي لحقته ، ولكن ما حدث في عصور الأندلس الذهبية كان أمرا مغايراً إذ تخصصّ العلماء في مجالات واضحة من أبواب العلم كالطب والصيدلة أو الفلك والنجوم وعلى شاكلتهم تخصّصّ أهل اللغة والأدب بمؤلفات في ميدان من ميادين اللغة كالنحو والبلاغة كالعقد الفريد لابن عبد ربه أو في اللغة كابن مالك صاحب الألفية أو ابن سيده ، وكذلك نجد ابن الزبير الغرناطي يتخصص في نوع من علوم القرآن والتفسير ،دقيق في ذاته وهو المتشابه من الآيات القرآنية ، وإنما يعنى بذلك بيان طريقته في إيصال هذا العلم أو الفن إلى الآخرين ،وهذه الطريقة تختلف تبعا لاختلاف مواضيع الدراسة من علم إلى آخر أومن فن إلى غيره وكذلك من كاتب إلى كاتب مغاير، ، "فالأسلوب في المواد والموضوعات الأدبية يختلف عنه في مواد العلوم الطبيعية والاجتماعية. وتمكن المؤلف من مادته العلمية استيعابا وإحاطة بكلياتها وجزئياتها يؤثر على طريقة عرضه لهذه المادة"[4].

وكما اختلف أسلوب المرسل يختلف أسلوب المرسل إليه في الاستقبال والفهم والتحليل فيؤثر بطريقة أو بأخرى في تفكيك الرسالة وتنفيذها، وقد دأبت النظريات اللسانية المهتمة بعمليات التواصل تؤكد على أن قياس مدى نجاح عملية التخاطب بعد انتقال الصورة الذهنية هو بمدى وصولها بنفس الشكل الذي انطلقت عليه من باعثها الأول، وكذا حدوث ذلك الأثر المرجو في نفس المتلقي وعليه فإن الغوص في أعماق الأنفس واستجلاء تفاعلاتها وردود أفعاها هو أحد مقومات الدراسة النصية.

ومن هنا يمكن القول:" إن الطريقة أو الأسلوب هو الوسيلة التي يتم بها إيصال المعلومات من المصنف إلى المتلقي سواء بالسماع أو بالقراءة. وهي تختلف عن المنهج؛ لأن المنهج هو الخطة العامة التي تقوم على المادة العلمية، والطريقة هي الأسلوب الذي ينقل به المؤلف ذلك المنهج"[5] .

وكانت طريقة ابن الزبير طريقة علمية أكاديمية وبأسلوب واضح سار عليه في كتابه، ونبَّه القارئ إليها في مقدمته، وجدير بالذكر أن منهجية البحث في العصر الحديث تطلب من الباحث أن يقدم في مقدمة بحثه عرضا ملخصا للطريقة التي سيخوض بها غمار بحثه، وقد سبق الأولون إليها، ومنهم ابن الزبير.

وتتلخص هذه الطريقة فيما يلي[6] :

– استقرائه لمؤلفات السابقين في نفس الموضوع الذي يكتب فيه؛ ليكون على بيّنة من أمره فيما يقول، ولا يكرر ما سبق أن قيل، فيكون عمله جديدا فيما يقدمه، ليس تكرارا دون فائدة. وهذه قاعدة ثانية من قواعد البحث المعاصر.

– استحسانه أحد مؤلفات السابقين، وتنبيهه إلى تقدمه وإمامته في هذا الفن، واقتدائه به؛ حيث يقول عن كتاب"درة التنزيل" للإسكافي: (إلى أن ورد علي كتاب لبعض المعتنين من جلة المشارقة، نفعه الله، سماه بكتاب"درة التنزيل وغرة التأويل"، قرع به مغلق هذا الباب، وأتى في هذا المقصد بصفو من التوجيهات لباب، وعرف أنه باب لم يوجف عنه أحد قبله بخيل ولا ركاب، وهذا من أخلاق العلماء؛ حيث يرجعون الفضل إلى أهله، فيعترفون بفضل سابقيهم، ولا ينكرون عليهم تقدمهم وإمامتهم لهم في فن من الفنون.

–استدراكه على الإسكافي كثيرا مما أغفله من متشابه القرآن اللفظي، وإشارته إليه بحرف "غ"، وتنبيهه القارئ إلى ذلك في المقدمة..

وننوه هنا إلى أن ابن الزبير تجاوز عن مجموعة من السور تبلغ ثلاثا وثلاثين سورة لم يبن ما فيها من المتشابه، وليس تقصيرا منه أو إغفالا، وإنما لأنه عالجها في صورة مغايرة في مواضع أخرى، فاكتفى بها عن إعادتها تجنبا للتكرار، أو لأنه لا يرى فيها من المتشابه ما يستدعي الذكر والشرح.

– أخذ ابن الزبير على نفسه أول كتابه أن لا يقف على شئ مما قاله الخطيب الإسكافي في نفس الآية التي يوجهها إلا بعد أن يفرغ هو من توجيهها، معتمدا على يفتح الله عليه به من علم وشرح، وعلى ما أُوتي من تبحر في علوم القرآن واللغة والبلاغة والتفسير والفقه والحديث وغيرها.

وهي قاعدة من قواعد البحث المعاصر أثنى عليه الباحثين أسير أفكار الآخرين، وأن يحرر فكره تماما قبل كتابة بحثه؛ ليخرج البحث من بنات أفكاره معبرا عن آرائه.

ولعل نفس السبب هو الذي دفع ابن الزبير إلى تنبيه القارئ أنه لن ينقل شيئا مما قاله أصحاب المعاني إلا في الشاذ النادر، وإذا نقل كلام أحد منهم أو من غيرهم نسبه إليه[7].

– راعى ابن الزبير في تتبعه كل ما تكرر من آيات القرآن أو اشتبه ترتيب التلاوة المتفق عليها سورة سورة ، وآية آية؛ فهو يورد ذكر السورة ثم يتناول ما فيها من آيات متشابهات؛ فمثلا يقول: سورة كذا ... الآية الأولى منها، ثم إذا انتقل إلى غيرها قال: "الآية الثانية منها"، وهكذا إلى آخر الآيات المتشابهات في السورة.

فإذا انتقل إلى سورة أخرى ذكر اسمها، واتبع فيها نفس الطريقة، وإذا كانت السورة التي يتناولها لا تحتوي إلا على آية واحدة ذكر اسم السورة ثم قال: "قوله تعالى كذا"، وأحيانا يدمج السورتين معا إذا كانت الأولى لا تحتوي إلا على آية واحدة تتشابه مع الآية الأولى من التي تليها، وإذا خلت السورة من الآيات المتشابهات أغفل ذكرها؛ مثل السور الممتدة من أول سورة البروج حتى آخر سورة الفجر، ومن أول سورة الشمس حتى آخر سورة الضحى، ومن أول سورة القدر حتى آخر سورة القارعة، ومن أول سورة العصر حتى آخر سورة الكوثر، وبعض السور المتفرقات، كسورة التين، وسورة النصر ، وسورة المسد[8] .

و مما عرف عن ابن الزبير الغرناطي في توجيه الآيات أنه يذكر الآية الأم في السورة التي هو بصددها، ثم يلحقها بما شابهها من الآيات من نفس السورة أو من غيرها .وانتهج في توجيهاته نهج البسط والتوسع ؛ فقد يستغرق الحديث عن الآية الواحدة عددا من الصفحات، كما فعل في الآيتين الحادية عشرة والثامنة والأربعين من سورة آل عمران؛ حيث ساق في كل واحدة أكثر من خمس صفحات، وفي مواضع أخرى كثيرة.

بل إنه قد يستغرق في بيان الكلمة الواحدة أو الحرف بضع صفحات؛ وعادة ما يبدأ في توجيه الآية بفرض بعض الأسئلة؛ لتنبيه القارئ، وبيان المواطن التي سيعالجها منها، ثم يشرع في الإجابة عنها واحدا تلو الآخر، وفي ثنايا الإجابة نفسها يفترض بعض

المداخلات من القارئ، إما بالسؤال أو الاستفسار عن بعض ما يتعلق بجوابه، فيرد عليه آخذا القارئ من سؤال إلى سؤال، ومن جواب إلى آخر، حتى ينتهي به وقد بين له كل ما يتعلق بالآية التي يوجهها، كل ذلك دون أن يمل منه القارئ، ودون أن يخرج به من إجابة إلى أخرى وهو غير مقتنع بشيء مما قاله، فهو يقنعه بأدلته القاطعة، وأسلوبه الجميل، وآرائه القيّمة[9].

وهذا الأسلوب الدقيق في التحليل والمقارنة ثم الموازنة بالحجة والبرهان لهو أنفع الأساليب مجابهة لأهل الضلال والتعطيل حيث حاول التدقيق في القضايا الشائكة بما يجعل تدخله علميا في المجابهة في فترة عم فيها الضلال وعرفت بالركود العلمي عموما وقلة التأليف، حيث كثرت النزاعات الطائفية والنعرات القبلة وكانت نار الفتنة لا تكاد تنطفئ في جانب حتى توقد في جانب آخر .

ومما يدل على ورع الرجل وحرصه على تحري الصدق في التفسير والتأويل ختمه لعبارات التحليل بعبارة "والله أعلم " ولعله بذلك يحرص على إحالة العلم لله عزوجل وقصور العلم البشري ، واضعا نصب عينيه حديث رسول اللهصلى الله عليه وسلمالذي يرويه الترمذي عن ابن عباس τعَنِ نَّبِيِّ اللهصلى الله عليه وسلم قَال: (اتَّقُوا الْحَدِيثَ عَنِّي إِلَّا مَا عَلِمْتُمْ فَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ وَمَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بِرَأْيِهِ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّار ".[10]

وكثيرا ما يعرب ابن الزبير عن براعته في علم من العلوم أثناء توجيهه للمتشابه، فيعقد فصلا تكميليا، أو تمهيدا لجواب، أو إيضاحا لقضية تعرض لها.فكلما وجد أن الأمر يحتاج إلى زيادة بيان وإيضاح، ثم رأى أنه يخرج عن موضوع الكتاب، عقد له فصلا خاصا صدَّره بقوله: فصل أو تمهيد.

وتجده في الكثير من المواقف يحيل القارئ إلى مراجع أخرى ككتب التفسير وعلم الكلام في كل موضوع يحتاج حسب رأيه إلى مزيد من الشروحات والتفصيلات ، ويبتعد عن الاطناب والتطويل لكي لا يخرج عن القاعدة التي رسمها لنفسه منذ البداية ،.

ولكنه شوهد في بعض المواقف يطيل في الشروحات حين يجد نفسه ملزما بالتفصيل والتطويل في شرح كلمة، أو توضيح قضية، أو شرح دليل قرآني، أو شاهد شعري، ثم يرى أنه قد يطول به ويخرجه عن موضوعه، فيستدرك أمره، ويرجع إلى توجيه الآيات.

وكثيرا ما يحيل ابن الزبير القارئ إلى كتابه "البرهان في ترتيب سور القرآن"، مصرحا باسمه تارة ، وأخرى بالإشارة إليه .إلى جانب ذلك اعتنى ابن الزبير بمناقشة الآراء، والتعليق عليها، وشرح الأبيات الشعرية التي يستشهد بها، وبيان موقع الشاهد فيها[11].

4.القيمة النصية للكتاب

موضوع هذا البحث هو تتبع عمل أحمد بن الزبير الغرناطي أثناء تأويله للمتشابه اللفظي في القرآن الكريم، وذلك انطلاقا من كتابه: "ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل"، و الغرض من ذلك فهو الكشف عن الأبعاد الأسلوبية المتحكمة في اشتغاله على النص القرآني، و كان الغرناطي كمشتغل على النص لا يعتبر لسانيا بالمعنى الدقيق للكلمة، لأن العصر الذي برع فيه يختلف تماما من حيث المعطيات عن تلك الفترة التي ظهرت وانبثقت فيها اللسانيات النصية الحديثة، لكن هذا لا ينفي وجود معالم نصية في قراءته لتناسق السور وللمتشابه اللفظي، يمكن الإفادة منها في بناء معالم نظرية نصية عربية، تستمد شرعيتها من الأصول العربية،

وفي الآن ذاته لا تكن أي عداء للنظريات الغربية الحديثة. وهكذا عملنا على استخراج بعض أدوات الغرناطي في توجيه الآيات المتشابهة في النص القرآني، قصد تتبع خصائص توجيه الآيات المتشابهات ووقوعها على أجل مناسبة، ثم ربط نتائج ذلك بمدى انفتاح تأويل الغرناطي على نظام الاتساق والانسجام للنص الذي يتجاوز معيارية نظام اللغة المبنية على الوصف.

5.الانسجام النصي وملامح الإشارة إليه :

إن ما يتعلق بالانسجام في الدراسات النصية الحديثة يحيل إلى مفهوم أسس له عدة باحثين من أبرزهم " **يول وبراون**" ويقصدون به تلك العلاقات التي يحدثها المتلقي ليسلم مجازا بانسجام النص وقد تعامل المفسرون مع النص القرآني بحذر شديد لقداسته إذ تتطلب منهم ذلك اطلاعا واسعا بعلوم العربية وعلوم الفقه والحديث وأخبار الأولين لكي ينمكن من ربط النص بالمتلقي علما أنه – المفسر – يحتل مكانة متلق أول هو أيضا ، وللتلق أيضا بعض المميزات التي يتصف بها والأسس التي يقوم عليها ، سميت عند البعض بنظرية الحصافة ونعني بها أن يلقى النص استجابة قوية لدى المتلقي " يتأسس التلقي في هذه النظرية (الحصافة) على مفهوم السياق والأثر السياقي ، فالمتلقي يتلقى الكلام في سياق يملكه هو ، وهو مخزن في ذاكرته ويصنع من ثم فرضيات تصبح هي بدورها سياقا يتلقى فيه بقية الكلام ،وهكذا تحدث عملية تمحيص للسياقات السابقة .وكلما أحدث سياق لاحق أثرا دل ذلك على أن هناك أثرا سياقيا ومن ثم يكون الكلام حصيفا أي يحضى بالاستجابة عند المتلقي " [12] انطلاقاً من معطيات سابقة حسب متطلبات السياق والمقام إذن فالانسجام يتعلق بحسن القراءة وجودة الفهم ، ويبرز هذا الأمر جليا في نصوص القرآن الكريم

1.5.التغريض: ربط السورة (النص) باسمها أو بالآية الأولى منها وهي ظاهرة لم يغفل عنها الغرناطي كما لم يغفل عنها سابقوه فقد ربطت آيات السور باسمها دلالة على معاني قارة مترابطة بين الآيات جاءت في شكل بديع لتتناسق مع كل النص من أوله إلى آخره ....

ومن أمثلة ما نجده في مستهل التفسير عن أم القرآن الفاتحة وكيف بدئت بحمد الله –عز وجل – ثم يقابلها بغيره من السور التي افتتحت هي أيضا بالحمد كسورة الأنعام و سورة الكهف وسورة فاطر وسورة سبأ ، ومن بديع ولوجه في سياق التغريض افتتاح التحليل بسؤال هو" ما وجه افتتاح السور الخمس "..... واختصاصها بذلك مع تساوي السور كلها في استقلالها بأنفسها ، وامتياز بعضها من بعض ؟ "أو"ما وجه تخصيص كل آية منها بما ورد فيها من أوصافه تعالى المتبع به حمده ؟" وقد قدم لذلك أجوبة تبين عن فهم لنظام لغوي أساسه الروابط الدلالية انطلاقا من الوحدات النحوية المشكلة للكلام وقد كان تفسيره " أن **الحمد لله** مبتدأ وخبر وكذلك **فللّه الحمد** وتأخر في هذه الثانية المبتدأ الحاصل في الموضعين معنى واحد ، وهو حمده تعالى بما هو أصله ومعلوم أن التقديم والتأخير فيما بين المبتدأ والخبر إذا لم يقع عارض مما يعرض في التركيب ، ككون المبتدأ مما يلزم صدر الكلام أو كون الخبر كذلك فيلزم تقديم ما له الصدرية ....."[13] وبهذا يكون تفسيره توجيهيا لمسألة البدء بالحمد في بعض السور المذكورة آنفا وقد التفسير نحويا تركيبيا ، ولكنه يضيف في الشرح والتفصيل رابطا الموضوع بالدلالة بقوله ".أما أم القرآن فهي أول السور ومطلع القرآن العظيم بالترتيب الثابت ، فافتتاحها بحمده تعالى بين .أما سورة الكهف فكذلك لبنائها على قصة أصحاب الكهف وذي القرنين حسبما ألفت يهود لسائلهم من كفار قريش ، وذلك مما لم يتكرر في

القرآن ، فافتتحت بحمده تعالى ، وذلك بين ، وأما سورة سبأ ، فإن قصة سبأ لم يرد فيها أيضا في غير هذه السورة إلا الإيماء الوارد في **قوله "وجئتك من سبأ بنبأ يقين** " [14] فلما تضمنت سورة سبأ من هذا ما تضمنت ومن قصص داود وسليمان عليهما السلام ، وما منحهما الله سبحانه تعالى من تسخير الجبال و.....ولم يجتمع مثل هذا التعريف في سواها ، افتتحها سبحانه بحمده وانفراده بملك السموات والأرض وما فيها ، وإنه أهل الحمد في الدنيا والآخرة " وبهذا يبين الغرناطي ارتباط السورة بأول آية فيها وعلى منوال ذلك ورد شرح العديد من السور موضحا فيها عدة أسباب تجعل السورة متناسقة مع بعضها البعض .

6.الاتساق والإشارة إليه:

أشار ابن الزبير إلى عوامل الربط بين أجزاء النص القرآني، فبيّن دور الأدوات ومعانيها ثم كيف تسهم كل أداة في خدمة الدلالة العامة للنص. وقد تمكن من توضيح العديد من الروابط التي تجعل النصوص المختلفة متناسقة مترابطة في السورة الواحدة فتبدو وكأنها لحمة واحدة ومن أبرز هذه النماذج كيفية اجتماع القصص القرآني المتعدد والمختلف ظاهريا من ناحية المضمون في سورة واحدة " ومن خصائص القصة القرآنية التي ذكرها ابن الزبير التناسب بين قصص السورة الواحدة ،أي أنه يجمع في السورة الواحدة ما تناسب من قصص الأنبياء وغيرهم ، أو بعض الفقرات المتناسبة من تلك القصص ، بحيث إن القصة تعرض في موضع بشكل وسياق معين ، ثم يختلف ذلك العرض في موضع آخر مراعاة للتناسب بين القصص الواردة في كلا الموضعين "[15] وعن هذا الموضوع أمثلة كثيرة منها مثلا ما ورد ذكره في سورة الأنبياء من قصص لمجموعة الأنبياء المرسلين وأثنى على موضع الرفعة والشرف الذي نالوه بهذه الرسالات لكنه يستطرد عن اختلاف موضوع القصة الواحدة في مواضع أخرى من القرآن حين تلاءمت مع السياق والجو العام للسورة مثلا قصة أيوب – عليه السلام –تختلف في سورة " ص"إذ كان فيها تصريح بالشكوى والبلوى " **مسَّني الشيطان بنصب وعذاب**"[16] ولم تكن الاستجابة مباشرة بل بعد أخذ بالأسباب " **اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب** "[17] بنما كانت الاستجابة مباشرة في موضع الرفعة حين كان الكلام لطيفا "**فكشفنا مابه من ضرّ** " الأنبياء 48

1.6.الإحالة:

ونعني بها ذلك الرجوع الذي يسمح بالعودة في النص إلى عناصر أخرى بواسطة اللغة ويعرفها جون ليونز بأنها " العلاقة بين الأسماء والمسميات "[18] علما أن تلك العودة تكون وفق شروط وخصائص معينة يجب أن تتوفر في اللغة المستعملة " وهذ العلاقة ذات طبيعة دلالية تشترط تطابق الخصائص بين العنصر المحيل والعنصر المحال إليه"[19] وهذا يدل على العناصر المحيلة لا تكتفي بنفسها من حيث الدلالة بل تحتاج إلى ما يكمل دلالتها.

- 1.1.6الضمائر : تعد الضمائر واحدة من أهم الوسائل المحققة لمبدأ الاتساق لأنها تحيل إلى غيرها من العناصر المتوفرة في النص لذلك توليها لسانيات النص الحديثة أهمية بالغة " تكتسب أهميتها بصفتها نائبة عن الأسماء والأفعال والعبارات والجمل المتتالية ، فقد يحيل ضمير محل كلمة أو عبارة أو جملة أو عدة جمل ،ولا تقف أهميتها عند هذا الحد ، بل تتعداه إلى كونها تربط بين أجزاء النص المختلفة شكلا ودلالة ، داخليا وخارجياً، وسابقة ولاحقة "[20] قد عبّر الغرناطي عن الطريقة التي يعود بها الضمير على سابق أوراحق لكي يدلّ على اتساق النص مع وحداته " **لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ** "[21] حيث أشار إلى قيمة الاسم الظاهر "من نفسهم "بينما يكتفي بالضمير في مواضع أخرى . " إن قولك من فلان من أنفس القوم أوقع في القرب والخصوص من قولك فلان منهم ...أما من أنفس القوم فأخص ..ولذلك وردت حيث قصد التعريف بعظيم النعمة به صلى الله عليه وسلم على أمته ...".**ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه** "[22]ويشير إلى أهمية الضمير في استثناء المقصود بالدلالة ذكرا ومنها قوله في هذا السياق "منهم لما قصد أنه إنعام عليهم لم يوفقوا لمعرفة قدره ولا لاستجابة المثمرة النجاة فقيل منهم "[23]
- **2.1.6أسماء الإشارة** : وقد بيّن ابن الزبير أهمية اسم الإشارة في الإحالة القبلية أو البعدية فمثلا في شرح قوله تعالى " **ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا** "[24] ومقابلتها بآية الكهف فقد حدث حذف لكن اسم الإشارة قام بدوره في ترابط النص بالسياق العام للنص" **ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا** "[25]

" واسم الإشارة متصل بما أشير به إليه لم يفصل بينهما إلا بوصف جهنم التي هي مأواهم اما قوله في الثانية " ذلك جزاؤهم " فالإشارة إلى جهنم المتقدم ذكرها في قوله " **وعرضنا جهنم يومئذ** " [26]وقوله " **إنا اعتدنا جهنم** "[27]لما بعد مابين اسم الإشارة والمشار إليه بما فصل به بينهما ..أعيد مظهرا فقيل ذلك جزاؤهم جهنم "[28]

3.1.6–التكرار : ويعتبر التكرار من لغات العرب التي عرفوا بها واشتهروا على بلاغة فيه لأسباب تتعلق بمقاصد يبتغيها المتكلم في خطابه ، ولذلك قال ابن فارس " ومن سنن العرب التكرير والإعادة إرادة الإبلاغ بحسب العناية بالأمر "[29] وكذلك نظر ابن قتيبة إلى لغة العرب فتنبه إلى كون التكرار أسلوب من أساليبهم يعمدون إليه بغرض الإفهام "ومن مذاهبهم التكرار إرادة التوكيد والإفهام كما أن من مذاهبهم الاختصار " [30] وهو من أهم الأسباب التي دفعت ابن الزبير إلى تأليف هذا الكتاب فالآيات المتشابهات جعلت المعطلين والمشككين ينقصون من قوة حجته ، فجعل يبين أهمية التكرار في كل مرة ووضح اللطائف اللغوية والدلالية التي تخرج إليها :فإن قيل تكرر قوله " **وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ** ۖ"[31] قلت لما أعقب قوله السابق بقول " **وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ** ۗ **وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** " وجاءت هذه الآية بين آية الأمر في قوله " **فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ** ۚ" وبين ما شأنه أن يكن مبنيا عليها من قوله " **وَحَيْثُ مَا كنتم فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ** ۗ" فلما تباعد عنها كرر توكيدا ولينبني عليه ما ينبغي اتصاله به .ثم يؤكد ما أقره بإيراد آية نظيرة لما تقدم يقول :" **أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ**" [32]فأعيد أنكم تأكيدا ولينبني عليه الخبر وكذا أعيد قوله

تعالى : ومن حيث خرجت " لينبني عليه ""**وحيث ما كنتم** ".وبهذا اللحظ لم يتكرر شيء في الآية لمجرد توكيد بل كل ما يظن تكرارا مفيد معنى لم يحصل محرزا مما قبله ووضح التناسب في ذلك كله [33].

7–الحذف : لقد عرف أن القرآن خاطب العرب الأوائل بما يفهمون ويستسيغون من الأساليب ، وإن عرفت العرب منذ أول عهدها بالذكاء والفطنة وصفاء الذهن فقد عرفوا أيضا أنهم يفهمون الكلام المشار إليه إشارة عابرة ، أو الذي يرمز إليه بالرمز المخفي ويكفيهم من الكلام أوله ليتعرفوا على آخره والبعض منه ليعرفوا جميعه، والحذف أسلوب لا يدركه المرء بسهولة ولا يعرف سره بيسر إلا من أوتي مراتب من اللغة ،فإذا أدركه استوقفته محاسن سبكه وروعة دلائله وجماله وعنه يقول الإمام عبد القاهر " هو باب دقيق المسلك لطيف المأخذ ، عجيب الأمر ، شبيه بالسحر ، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بياناً إذا لم تبن "[34] .

وقد ذكر ابن الزبير مجموعة من ألوان الحذف حيث يتنوع العنصر المحذوف حسب متطلبات السياق والمقام " فأشار إلى حذف بعض أركان الجملة الأساسية كحذف الفاعل أو ما عطف عليه ، كما تطرق إلى حذف المسند ، وحذف المضاف ، كما تنوع وقوفه عند حذف بعض مكملات الجملة كالتوابع وما شابهها ، وأكثر الحديث في حذف الأدوات والحروف كحروف الجر ونوحها ، ولذا جاء تناوله لمبحث الذكر والحذف تناولا شيقاً متنوع الجوانب "[35] وإذا كانت مواضع الحذف كثيرة ومتنوعة فإنا نذكر بعض النماذج عنها ومثال ذلك ما ذكره في توجيه آية سورة محمد " طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ"[36]

وقد نقل عن سيبويه قوله : طاعة وقول معروف أمثل ، وعلى هذا فالمحذوف هو المسند ، والواقع أن مثل هذا المثال وما يشابهه مثل قوله تعالى " قل لا تقسموا طاعة معروفة " وقوله " فصبر جميل " يمكن أن يكون المحذوف المسند كما سبق ، ويمكن أن يمون المسند إليه ويكون تقدير الآية :أمرنا طاعة وقول معروف ، أي قالوا : طاعة وقول معروف بمعنى : أمرنا طاعة وقول معروف " فيكون المحذوف أحد الطرفين أما المسند أو المسند إليه ." [37] وفي مثال آخر يعلل ابن الزبير حذف الفاعل في قوله تعالى : "وطبع على قلوبهم " وفي سورة أخرى " **رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم** " وجوابه عن سر الحذف كان بقوله " **الجواب أن مطلع الآية قبلها " وإذا أنزلت سورة على بناء الفعل للمفعول فجاء قوله " وطبع على قلوبهم " على ذلك ، ونوسب بختام هذه الآية بداءة ما قبلها ، أما الثانية لم يقع قبلها فعل بني للمفعول وقد ذكر الفاعل فيها فجرى الكلام على ما يجب فقيل " وطبع الله على قلوبهم "[38] . وبهذا يكون صاحب ملاك التأويل قد وجه بعض الآيات التي تبدو متشابه إلى أغراض نحوية وبلاغية كالحذف الذي يعد من اللطائف اللغوية التي لا تدرك بيسر ويستجلى معناها بسهولة إلا لمن أوتي نصيباً وحضاً وافراً من مفاتيح اللغة .**

8. خاتمة: ومن خلال ما مرّ من إشارات لغوية وبلاغية، نجد ابن الزبير قد استخدم جميع وسائل الاتساق في شرح البنى المشكلة للنص والعلاقات الرابطة بينها، دون أن يصرح به(الاتساق)، ولذلك اخترنا أن نعبر عن هذه الظاهرة بالإشارة (الإشارات النصية). وكأنه أشار ضمنا إلى جميع خطوات الاتساق –وغيرها كثير لم نذكره في هذا البحث الموجز – وهذا يدل على فهم عميق للكيفية التي يتركب بها النظام

اللغوي ، فقد تبين لنا من خلال نظرية المتشابه أن تلك الجمل والآيات التي تبدو متشابهة متطابقة و يتساءل الكثير عن سرها ، توجد بينها اختلافات دقيقة تتمثل في بعض اللطائف اللغوية التي لا ينتبه إليها القارئ البسيط قد تكون كلمة أو حرفا (العطف –الإشارة –الضمير ...) أو تقديم وتأخير ،

وقد خرج كتاب كملاك التأويل في هذه الصورة القوية –والذي ذكرناه هو النزر القليل – ليبين على شخصية قوية لصاحبه، حيث يرى القارئ أنه أمام عمل أصيل قد بذل في إخراجه جهدا فنيا وذوقا كبيراً، يجعل القارئ يتمعن بعمق في الأفكار المطروحة وبالحصافة البارعة التي تميز بها ابن الزبير، وإنه قد خاض مسائل متشابكة متشابهة حتى إنه تطرق للكثير من الآيات بطريقة لم يسبقه إليها أحد، وإن كان قد اعترف بنفسه أنه أخذ عن الاسكافي إلا أنه عالج المواضيع بصورة أكثر تفصيل وأكثر جدة.

ويمكن للباحث أن يلمح الكيفية التي أبرز بها ابن الزبير مظاهر انسجام النص القرآني وتماسكه ،حيث تطرق لكل المباحث البلاغية والنحوية التي تعنى بالعلاقات الكبرى بين أجزاء النص ، وبهذا أثبت أن القراءة المجزأة للنص القرآني لا تجدي نفعا ولا تخدم دلالة النص الحقيقية ، فالألفاظ والجمل والسور تنتظم جميعها في بناء واحد منسجم .كما أن ابن الزبير يعد من المفسرين العرب الأوائل الذين فهموا معنى النص الكلي الذي يمتاز بالمعايير النصية من جميع جوانب الدلالة كالسياق والمقام والمقصد ، فهم نظروا إلى النص القرآني كلا متكاملا مجتمعا كل بنية منه تحيل إلى البنية الأخرى وترتبط بها.

9.المصادر والمراجع:

- **القرآن الكريم .**
- ابن الزبير الغرناطي: ملاك التأويل القاطع بذي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، تح سعيد الفلاح، دار الغرب الإسلامي، ط2، 2007
- صحيح البخاري .
- ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن: تح إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، لبنان 2007
- ابن فارس : الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها : تح أحمد حسن بسج ، دار الكتب العلميّة ،لبنان 1997.
- إبراهيم بن عبد العزيز الزيد: البلاغة القرآنية في الآيات المتشابهات من خلال كتاب ملاك التأويل، دار كنوز إشبيلية، الرياض 1430.
- أحمد عفيفي: نحو النص (اتجاه جديد في الدرس النحوي)، مكتبة زهراء الشرق، ط 1، القاهرة 2004.
- ينظر محمد خطابي: لسانيات النص (مدخل إلى انسجام الخطاب)، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت 1991.
- مفتاح بن عروس : الاتساق والانسجام في القرآن ، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه دولة في تخصص لسانيات النص ، جامعة الجزائر ، قسم اللغة العربية وآدابها ، الجزائر 2007/ 2008
- صبحي إبراهيم الفقي : علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق (دراسة تطبيقية على السور المكية) ، دار قباء ، القاهرة ،د ط، 2001، ج01.
- ياسر عطية الصعيدي :أستاذ اللغة العربية والدراسات الإسلامية ملتقى أهل التفسير vb.tafsir.net/tafsir4625/#.XFV1HlVKjIU
-

.الهوامش:

[1] ملاك التأويل ص64

[2] المرجع السابق ص 64..

[3] نفس المرجع ص64

[4] ياسر عطية الصعيدي: توجيه المتشابه في القرآن الكريم، النابغة للنشر والتوزيع، مصر 2016 ص58

[5] المرجع نفسه ص58.

[6] المرجع نفسه .

[7] ياسر عطية الصعيدي :أستاذ اللغة العربية والدراسات الإسلامية vb.tafsir.net/tafsir4625/#.XFV1HlVKjIU ملتقى أهل التفسير .

[8] ياسر عطية الصعيدي :أستاذ اللغة العربية والدراسات الإسلامية vb.tafsir.net/tafsir4625/#.XFV1HlVKjIU ملتقى أهل التفسير

[9] المرجع نفسه .

10 الراوي:المغيرة بن شعبة المحدث:البخاري المصدر:صحيح البخاري الجزء أو الصفحة 1291:حكم المحدث]:صحيح[

[11] ياسر عطية الصعيدي :أستاذ اللغة العربية والدراسات الإسلامية vb.tafsir.net/tafsir4625/#.XFV1HlVKjIU ملتقى أهل التفسير

[12] مفتاح بن عروس : الاتساق والانسجام في القرآن ، رسالة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه دولة في تخصص لسانيات النص ، جامعة الجزائر ، قسم اللغة العربية وآدابها ، الجزائر 2008/2007، ص 459.

[13] ملاك التأويل ص 151.

[14] سورة النمل الآية 22.

[15] البلاغة القرآنية في الآيات المتشابهات

[16] سورة ص الآية 41.

[17] سورة ص الآية 42.

[18] أحمد عفيفي : نحو النص (اتجاه جديد في الدرس النحوي)،ص 116.

[19] ينظر محمد خطابي : لسانيات النص (مدخل إلى انسجام الخطاب)ص17.

[20] صبحي إبراهيم الفقي :علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق ج1، ص137.

[21] آل عمران الآية 164

[22] سورة النحل 113

[23] ملاك التأويل ج1 ص322.

[24] الإسراء الآية 98

[25] الكهف الآية 106.

[26] الكهف الآية 100

[27] الكهف 102.

[28] ملاك التأويل ج2 ص776.

[29] ابن فارس : الصاحبي في فقه اللغة ص 177.

[30] ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن . شرح السيد أحمد صقر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،1401 ، ط 03، ص 235

[31] البقرة الأية 150

[32] المؤمنون الآية35.

[33] ملاك التأويل 116-117

[34] دلائل الإعجاز ص146

[35] إبراهيم بن عبد العزيز : البلاغة القرآنية ، ص217.

[36] سورة محمد الآية 21.

[37] – إبراهيم بن عبد العزيز : البلاغة القرآنية ص 219.

[38] ملاك التأويل ج01 ص597.